التوظيف الأسطوري والتاريخي والديني

ذكر الناقد عبد الله رضوان في كتابه «القدس في الشعر العربي الحديث»: أن مدينة «يبوس» أصبحت رمزاً للحضارة الكنعانية المبكرة، ثم تغيّر الاسم إلى «أورسالم» ثم «إيليا» ثم «القدس». رغم أن الحفريات والوثائق المصرية القديمة تثبت عكس ما ذهب إليه الباحث، فـ«أورسالم» أي مدينة السلام هي التسمية الأولى لمدينة القدس، وهو اسم الإله الكنعاني حامي المدينة، ثم أخذت اسم «يبوس» نسبة إلى اليبوسيين المتفرعين من الكنعانيين، وهذا الاسم نسبة للملك اليبوسي «ملكي صادق»، وهو أو من بنى يبوس، وظهر فيما بعد اسم «أورشليم» في الكتاب المقدس في سفر يشوع، وهو عبارة عن نحت من «أورسالم» الاسم الكنعاني القديم، ويعني «موقع مخصص لعبادة الله وخدمته.

وقد وردت في الكتاب إشارة لاستخدام الشاعر تميم البرغوثي «مثمّن الأضلاع»، وهي إشارة لقبة الصخرة، تقول إشارة الباحث: «والإشارة هنا إلى قبة الصخرة ذات الأضلاع الثمانية، باعتبار المثمّن جزءاً رئيساً من جماليات التشكيل الفني العربي الإسلامي، ومصدره الآية القرآنية الكريمة «ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية». ص17.

في حين يقول الدكتور عفيف البهنسي في بحث له قدّم ضمن أبحاث الندوة السادسة: يوم القدس، في عمان بتاريخ 205 تشرين الأول 1995، بعنوان «هوية القدس العربية والإسلامية»: النجمة الثمانية التي تعبر عن مفهوم الكون وخالق الكون في الفكر الإسلامي، والتي تتألف من مربعين متقابلين بمركز واحد. مربع يمثل الجهات الأربع كما هو مربع الكعبة المشرفة ومربع آخر يمثل عناصر الطبيعة الأربعة: الماء والهواء والنار والتراب». فطالما أن البحث يخلو من أية مرجعية أو توثيق علمي، فالآراء الواردة أو

اجتهادات الباحث تبقى بعيدة كل البعد عن البحث العلمي المتقصّي. ودليل ذلك كشف بأسماء الشعراء وقصائدهم في نهاية الكتاب لا يوثّق المصدر بأي حال من الأحوال[72].

من الصعوبة بمكان أن نحصر عدد الكتب والمقالات التي تناولت القدس في الشعر العربي.

إن أغلب الباحثين، قد درجوا على رصد تلك العلاقة، ابتداء من عام 1948 تاريخ النكبة وبداية الشتات والألم العربي المقيت، غير أن بعض الملاحظات جديرة أن ترد في هذا المقام، ومنها أن كثيراً من هذه الأغراض والفنون والأساليب تتطور بمرور الزمن. فبعض الأغراض لا يعرف النقاد لها بداية، بل ظنها البعض أنها جاءت مع الشعر والبيئة وربما قبلهما.

وحين نتحدث عن تجليات القدس في الشعر العربي عامة وعن خصوصيتها الفلسطينية النادرة وحالتا النضالية نذكر أسماء بارزة لشعراء عرب وفلسطينيين عبر حقب زمنية متفاوتة أمثال: راشد حسين ومحمود درويش وعلا الشروف، وفي قصائد مظفر النواب ونزار قباني وعرار وعبد الرحيم محمود وعمر أبو ريشة وعبد الغني التميمي وأحمد مطر ومحمد مقدادي والمتوكل طه ولطفي الياسيني ومحمود درويش وهارون هاشم رشيد وسليمان العيسى وعمر أبو ريشة وإيليا أبو ماضي وزكي قنصل وعلي الخليلي ومحمد حلمي الريشة والأخوين رحباني وفدوى طوقان وحنا أبو حنا ويوسف العظم وأمين شنار ونبيلة الخطيب وعبد الغني التميمي وعلي محمود طه ومظفر النواب ومصطفى النجار ونايف أبو عبيد وشادي المناصرة... وغيرهم الكثير الكثير مما لا يتسع المجال

[72] عبد الله رضوان: «القدس في الشعر العربي الحديث»، ص 17.

لذكرهم فهم باقون في ذاكرتنا الأدبية ووعينا الجمعي بما قدموه من نضال الكلمة والفكرة والعاطفة.

وإن حُقّ لي أن أستشهد ببعض قصيدة أقول في قصيدتي(قالت له):[73]:

هَلْ يَكْتُبُ التاريخُ هذا اليَوْمَ؟؟

مِنْ أيِّ القلوبِ سَتَرْجَعونْ

مِنْ أيِّما وَطَنٍ وأنْتُمْ قابِعونْ

كُلُّ الأراضي مَوْطِنٌ لي

غيرَ أنكِ يا فلسطينُ الجَميلةُ مَوْطِنُ الأحْلامِ

وَشْمٌ لا انمحاءَ لهُ علَى جُرْحِ الدُّروبْ

سُحُبٌ فِلِسْطينيّةٌ ترْوي احتراقاتي

أنينُ بلابِلِ الغَيثِ الطَّروبْ

والأمنياتُ مَعَ الصّباحاتِ التي رَحَلَ البَنَفْسَجُ مِنْ حَدائِقِها

وغابُ النّورِ عَنْ طُرُقاتِ أوْرِدَةِ الحكايةِ

إنما كانتْ وسوْفَ تظلُّ ما شاءتْ تكونْ

[73] مصاروة: ديوان بتول لغتي، ص 150 / 151.

اسْماً تُرَدِّدُهُ المَعاجِمُ والمنابرُ والعواصِفُ

ويبقى لنا وقفات مع شعراء أفذاذ على اختلاف ألوانهم الشعرية في نصوصهم سواء أكانت عمودية أو تفعيلة أو قصيدة النثر التي استحوذت على ذائقة جمهور عريض من رواد وقراء الأدب العربي فهذا الفلسطيني اليافع- يقول في قصيدة له بعنوان" في القدس":[74]

للقدس..

نكهةُ نُبُوءَةٍ تَئِنُّ في خُشُوعِ اليَاسَمينِ؛

وصمتِ الحمامْ

هناكَ وعلى بُعْدِ مَوْتَيْن

تُشْنَقُ الأماني

وتُصْلَبُ

قَوَافِي الصَالِحِينَ؛

وتَمْتَماتُ المَطرْ

.....

ولازالتْ

[74] ماهرالطردة، ديوان بلقيس نبوءة السلام، ص21/ 20.

جنازةٌ للسماءِ تسعى

وثُمالةُ الموتِ

تشبَع من خاصرةِ السنابلْ

والأرضَ ضَاجَعُوا بِكَارَتِها

يَهودٌ

زَنَوْا في محْرابِها ولَوَّثوا شَهْوَةَ العابِرينَ للحياة

تباً لعُرَاةِ العُروبَة ؛

يَشْتهونَ قِمَماً بِمزاجيّة القَنَاصِلْ...

هنا يصور لنا الشاعر مدينة الأنبياء مستنكرا غفلة الحكام وتخاذلهم مبيناً حال القدس في ظل إلحاح المحتل على تهويدها واستبدال ملامحها في سعيهم لإحباط العزيمة الفلسطينية، في حين أنها ثابتة لا تلين ولن تسكين رغم غفلة المتخاذلين. فقد يقول في موضع أخر من القصيدة[75] :

هَوِّنوا عليْكُمْ

في القدس من للقدس

لا ولنْ تُسْرَقُ المُروَءة

[75] ماهر الطردة، ديوان بلقيس نبوءة السلام، ص21/ 20.

مِنْ بَنْدُقِيةٍ ثائِرْ

ما عَهِدْنا العزيمَةَ تُزَفُّ مِنْ رَحْمِ أُنْثَى

ولا منّا منْ لأُمِّهِ غادِرْ

نبيعُ بِنقودِ الموتِ أشبالُنا

ولا نُغادِرْ

ولا يفوتني أن أستشهد بالشاعر الفلسطيني ابن الشعراء وسليل الأدباء "تميم البرغوثي"[76]:

مررنا على دار الحبيب فردنا عن الدار قانون الأعادي وسورها

فقلت لنفسي ربما هي نعمة فماذا ترى في القدس حين تزورها؟!

ترى كل ما لا تستطيع احتماله إذا ما بدت من جانب الدرب دورها

فالشاعر جاء لزيارة القدس، فرده يهود ومنعوه من زيارتها بها وضعوه من أنظمة وقيود، وما سنوه من قوانين، وضعوها حسب أمزجتهم ووفق هواهم، تحول بين أهل فلسطين وبين زيارتها أي زيارة القدس ودخولها. كما يحول سور القدس المغلقة أبوابه بأعداد كبيرة من جنود يهود، جنود الاحتلال البغيض، المدججين بالسلاح والهراوات، يمنعون أصحاب البلاد الشرعيين من دخولها والوصول إلى مقدساتها. وفي نفس الوقت

[76] تميم البرغوثي، ديوان في القدس، 1-12.

يدخلون إليها كل شذاذ الآفاق من مختلف الجنسيات كالروس والإثيوبيين ويجندونهم ويحملونهم السلاح للفتك بأهل البلاد الشرعيين.

ويذكر لنا في قصيدته: القدس وسورها، والقدس وصخرتها المشرفة، اسمعه يصف قباب مساجد القدس وصخرتها المشرفة بقوله[77]:

في القدس يزداد الهلال تقوسا مثل الجنين

حدبا على أشباهه فوق القباب

تطورت ما بينهم عبر السنين علاقة الأب بالبنين

في القدس أبنية حجارتها اقتباسات من الإنجيل والقرآن

في القدس تعريف الجمال مثمن الأضلاع أزرق

فوقه- يا دام عزك- قبة ذهبية

تبدو برأيي مثل مرآة محدبة

ترى وجه السماء ملخصا فيها

تدللها وتدنيها

كما ويذكر لنا تميم سوق باب خان الزيت والعطارين ومدارس القدس في عهد المماليك، وهي كثيرة ومنتشرة داخل سور القدس، وأكثرها قريب من المسجد الأقصى،

[77] تميم البرغوثي، المصدر السابق، 12-18.

ويذكر لنا قبور القدس وشواهدها المكتوبة بكل لغات الأرض، والتي تضم مختلف الجنسيات، استمع للشاعر يقول في ذلك[78]:

فالقدس تقبل من أتاها كافراً أو مؤمناً

أمرر بها واقرأ شواهدها بكل لغات أهل الأرض

فيها الزنج والإفرنج والقفجاق والصقلاب والبشناق

والتتار والأتراك، أهل الله والهلاك،

والفقراء والملاك، والفجار والنساك

فيها كل من وطئ الثرى.

ويركز تميم في قصيدته على القدس، حتى ما يسمونه اليوم بالقدس الغربية، فيذكر بائع خضرة من جورجيا، وكهلا جاء من منهاتن، يفقه فتية البولون في أحكام التوراة.

ويصف شباب القدس ورجالها دون الخمسين، الذين يمنعون من الصلاة، أروع وصف وأخصر قول وأجمل بيان، وخير الكلام ما قل ودل، يصف ذلك بقوله[79]:

في القدس صلينا على الإسفلت

في القدس من في القدس إلا أنت

---

[78] تميم البرغوثي، ديوان في القدس، 18-21.

[79] تميم البرغوثي، ديوان في القدس، 21.